البحث عن غرناطة

لمحمد علي شمس الدين

تقديم وترجمة
الدكتور بيدرو مونتافيز

نقلت نصّ البحث من الإسبانية إلى العربية: ناديا ظافر شعبان، ونشر هذا البحث مع القصيدة مترجمة في الإسبانية، في مجلة ALMENARA – Volume no 1 التي تصدر في مدريد. كما طبع في كراس خاص.

يبدو لي أن محمد علي شمس الدين، هو الإسم الأكثر أهمية، والأكثر وعداً، في آخر ما كتب من الشعر اللبناني الحديث.

وأعتقد أن الديوان المدهش، العميق، والمقلق، الذي أنتقي منه القصيدة التي أترجمها: « قصائد مهرّبة إلى حبيبتي آسيا » – بيروت، دار الآداب ١٩٧٥، هو ديوانه الأول.

وهو يضمّ عناوين مؤرخة بين ١٩٧١ و١٩٧٤، رغم أنّ أكثر القصائد تعود إلى سنة ١٩٧٣.

منذ عدة سنوات، وأحد اهتماماتي الفنيّة – المهنية، (ومتعتي أيضاً) أن أقرأ الشعر العربي المعاصر.

وأنا أفعل ذلك، توصلتُ إلى أن أجمع عدداً لا يستهانُ به من القصائد التي تتناول أو تستدعي موضوعاً إسبانياً، كعنصر محرّك للعمل الوجداني.

والحقيقة أننا بحاجة إلى عرض بعض النماذج، وبمختلف الاتجاهات، التي يجب أن نقدمها للجمهور.

وأنا أحاول أيضاً أن أفصّل بشكلٍ مناسب، وأميّز ما تحويه هذه النماذج، وما يظهره كل شاعر على حدة، من ابتكار وقيمة، (مواجهةً) في مقابل ما ليس بذي قيمة، ولا يشكل سوى مادة نقل واستهلاك.

وهذا هو أول أعمال الأنثولوجية التي أقوم بها حول الموضوع. والحقيقة أنّ الأمثلة النموذجية في الاتجاهين، لا تنقصنا إطلاقاً.. ولعلي أكرّس نفسي، بعد فترة، لأقدم إلى الجمهور، عملاً أوليًّا من المختارات عن هذا الموضوع، بعد المحطات التي وقفت فيها، وبعد الاقتراب أكثر، من عملي الذي قمت به تدريجياً حتى اليوم.

حسناً: منذ اللحظة الأولى التي قرأت فيها « البحث عن غرناطة » لمحمد علي شمس الدين، شعرتُ بارتعاش غريب، أو بوخز، وأحسستُ أكيداً أني اكتشفتُ شاعراً أصيلاً.

شيء ما، فيه من المجازفة، مكثّف وصعب... سيّما وأنّ الأمر يتعلق بشاعر شاب، معرّض لكل الأشراك.

وشعرت أيضاً أنّ القصيدة تحمل حساسيات ورياحاً جديدة إلى الشعر العربي، وذلك رغم أنها، بطبيعة الحال، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحركات ونزعات وأسماء سابقة، يتأتّى أننا لا نستطيع أن نفصلها عنها.

وباختصار، فإنّ الأمر يتعلّق بمثال واضح، لما هو جوهري، بالنسبة إلى الشعر الحقيقي: إيقاع الاتصالية والتجديد.

* * *

في تعليق نقدي مختصر، ظهر مباشرة بعد نشر القصيدة في المجلة البيروتية (الآداب) – عدد أوكتوبر ١٩٧٣، نجح الشاعر المصري محمد إبراهيم أبو سنّة (رغم أنّ إنتاجه أكثر من إنتاج محمد علي شمس الدين)... نجح في تلمّس هذه السِمة المغامرة والمجازفة للقصيدة، التجريبية الاختبارية، والخلّاقة ثبوتاً.

شيء ما، يبعث على المجرّد المطلق، المتحد الجوهر، اللاصق بالشعر، في أثر شمس الدين.

وقلّة هم الشعراء الذين ينتصرون في مغامرة التخيّل، ويتجاوزون إطار ما هو عامّ وعادي، وهؤلاء يعرفون أن مغامرتهم مجازفة كبرى، ولكنهم يتقدّمون في طريقها.

والشعر العربي يحتاج حتماً إلى المخاطرة، إلى المحاولة، إلى التجديد، إلى الابتعاد عن التكرار، إلى هؤلاء التجريبيين المبتعدين في ملاحقة الكشف الحديث.

وهذه القصيدة مليئة بالشعر الجيّد، وبالإشارات المشحونة بالمعاني، والرغبة القادرة على نحت شكل خاص، ولغة خاصة، لأن الشاعر يُلحّ على أن يمتلك عالماً خاصاً.

في الواقع، إن كل ذلك يطعّم ويبلّل الشعر البكر لشمس الدين، وكل ذلك يفيد في بدء التفهّم لعمقه، ولغزه، لوضوحه وظله، شعر ممهور بقدرة تصوّر مدهشة، وغنية جداً، شجاعة، جسورة في استعمالها للسوانح.

إضافة إلى قدرة مدهشة أيضاً على الإيحاء والاستبطان (استيحاء التراث)، على الانشطار، على الغموض، واختلاط (ضبابية) التصاميم على رسم المنظور الفني، والتقاط أبعاد اللحظات:

شعر جنسي، في ذاتِ شهوانيةٍ كثيفة وحرة.

شعر سياسي، ولكن بوضعٍ خاص، بتفجر ونغم، ولهجة لا علاقة لها بكل المناشير المنحرفة التي يبدو أنّ علينا احتمالها دائماً...

ولا يمكن أن يكون إلا كذلك: شعر وجودي بقوة، يغوص في الأساطير، مليء بالرموز والإشارات.

شعر علينا أن نقترب منه تدريجياً، بعد الصدمة التي يولّدها لدى قراءته للمرة الأولى، ونحن نحاول أن نفكّ رمز الغاية الصحيحة من موادّه الأساسية التي يلجأ إليها.

في دراسة حديثة، كان محمد عيتاني قد أظهر أحد هذه

الأساليب للاقتراب من شعر محمد علي، مستقصياً دعامتين من الدعائم الأساسية لقصائده: الريح والطفل.

في ما قلناه حتى الآن، ما يكشف على الوجه الأكمل، في القصيدة الغرناطية التي نترجمها، أنّ هذه القصيدة بعيدة جداً، ولحسن الحظ، عن التقليد الأجوف للحمرائيين (وللقصائد الحمرائية): (تقليد الأندلسيين في كل ما يتصل بالحمراء وغرناطة).

بإمكاننا أن نؤكّد أنّ قصيدة (البحث عن غرناطة)، لشمس الدين، هي (شعر غرناطي) إلى حدّ بعيد، لأنه يفترض (قراءة داخلية) «وإضاءة نقدية باطنية» كما يؤكّد محمد عيتاني.

ولا بُدّ، في النهاية، من تنبيه أخير، وهو أنه، حالياً، ثمة أمور عديدة لا يمكن أن تعكسها الترجمة الإسبانية للنص العربي. وذلك بسبب إطار التحديد اللغوي الذي تتحرك ضمنه كل لغة.

فاللغة العربية، يمكن أن نميّز فيها على الوجه الأكمل، بين «أنتِ» المؤنّث، و«أنتَ» المذكّر... لأنها تمتلك أشكالاً خاصة لكلٍ من عناصر الخطاب أو النداء أو الالتجاء (التوجّه).

في معظم المناسبات، يتأتّى صعباً، وبشكل حتمي، أن نعكس بشكل مناسب، هذه التفرقة في لغتنا الإسبانية.

والترجمة معرّضة لخطر أن تتحوّل إلى شيء مبهم وملتبس، مختلف ولا يُحتمل.

ولذلك، لم أجد مخرجاً غير أن أستعمل أحياناً الحرف الماجسكول (وذلك أمر اعتقدته صادماً بيننا) للتمييز بين المذكّر والمؤنث، بحيث أنّ ذلك يمكن أن يعكس قرباً من المعنى، رغم بقائه بعيداً على الجوهر.

ومع ذلك، أشك أيضاً في أنّ بعض هذه المعاني القريبة لن تكون في نهاية الأمر كثيرة البعد، في إطار القصيدة، ومشاعرها.

وإن أحد هذه العناصر الأساسية المؤلفة للقصيدة، هو بالضبط، الحس، الأرق، والنَفَس الأنثوي... وهو يصل عبر أقنية مختلفة لإيحاء وتذكّر.. لتجاذب ووجود.

بين هذه العناصر جميعاً، غرناطة هي التي نلتقيها، في البحث عن الوقت الضائع، الذي يحاول الشاعر أن يسترجعه ويعيشه، مأساوياً، رائياً، وفي غاية الجمال.

القصيدة

سَعفُ النخيلِ
يرنّ في أجراسه (بَرَدى)
ويشربه الخليجُ
يدقّ نافذةً بذاكرتي
ويفتح ثُغرةً في الرأس
توصلني
فيفجؤني النعاسُ.
لغتي مدمّرةٌ
وأعلم أنني لا مُلْكَ لي:
ما زلتُ أقرأ طالع الأبراجِ
أقذف نجمةً كالنردِ
فوق رمالك الملكيّة الصفراء.
ثُمّ أعيدها
وتدور بي قدماكِ
تسقط مثل برج الماءِ
قُبّة نهدكِ النبويّ
(لا أبكي)
وأسقط حين تبتدئين
فابتدئي
من خلف نافذتين للغرباء
مُثْقلةً بماء النطفة الأولى
مكثّفةً بسحر زمانكِ المفقود
في غرناطة الجَسَد.

★ لا تلتقي في البحر
غير أصابع الأطفال
أجنحة يعبئها الخليج
وتنزلين في مرآته الزرقاء
تنكشف الخديعة لي:
- كلاب البحر والقرصان -
تنشطرين في الزَبَدِ

★ قَدَمي بوجه الماءِ
ترسم ظلَّ آلهةٍ
مشردّة على الشطآنِ
أرصفُها كآنيةٍ على قدميكِ
ثم أبيدها
وأبيد ذاكرتي
وذاكرة النخيلِ
أقول إني آخر الموتى
ووجهُكِ أوّلُ

★ لا مُلكَ لي....
تنمو سماؤكِ:
نصفُها كالموجِ
يصلح للرحيل
ونصفها كالطفلِ
يصلح للعبادةِ
دائماً
تنمو سماؤكِ:
أضمحلُّ
وتكبرين....
كل الطيور تموت واقفةً
ويعبرها غزال الوقتِ
أنتِ غزالة تعدو وتوصلني
فيفجؤني النعاس...
وبكيتُ....:
إن الريح تغفر لي.